ـ كانوا يطمحون الى رؤية الخالق ، والخالق تعالى بسره عن الرؤية في سماواته البعيدة ، فلما عذبتهم أشواقهم ·· راحوا يعبدون مظاهر قوته في الأرض أو في السماء ·

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم تخيلوا آلهة أخرى عديدة ·· صنعوا لها تماثيل من الحجر ·· ومن الخيال المعنى ، وقدموا لها القرابين ·· لعل تلك الآلهة الحجرية ·· أن ترفع القرابين نيابة عنهم ·· الى الاله الأعظم ·· المختفى بأسراره خلف ضفاف الرؤية والعلم والخيال ·

ـ ومن كان أشهر آلهتهم ؟

ـ كثيرة كانت آلهتهم ، كان منها الاله « شيفا » ، أسطورة شيقة من أساطيرهم الطيبة تقول ان شيفا صعد ذات يوم الى أعلى قمم الهملايا ·· فوقع بصره على النهر السماوى « جانجا » ·· جاريا بمائه فى الفضاء ، فقال له : أيها النهر اهبط ، فهبط ملقيا بأمواجه فوق رأس شيفا ، وعندئذ تاه النهر بأمواجه فى الرأس الالهى الكبير ·· واختفى ، لكن ناسكا مقربا من الاله شيفا اسمه « بهاجى ريتا » رئى لحال النهر ·· فتوسل الى شيفا أن ينقذه من الضياع ، فاستجاب له شيفا ، نثر ضفيرة من شعر رأسه ·· فانساب منها نهر جانجا المقدس ·· هابطا فى شعاب الهملايا ·· سيولا متدافعة تنشر الخير فى كل اتجاه ، لذلك أحب أهل الهند ذلك الناسك ·· الذى توسط لدى الاله القاسى شيفا ·· وأطلقوا اسمه على منبع النهر العظيم حتى الآن « كهف بهاجى ريتا » ·

هكذا سيطرت الرؤى والأشواق الى المجهول على الهندوس آلاف السنين البعيدة ، راح شعراؤهم خلالها ينسجون من الشعر أساطيرهم المتوالية ، المتزاحمة ، وراح الحكماء والنساك منهم يصيغون من حكمتهم وتقواهم ·· أطول قصائد فى تاريخ العالم · فقصيدة « المهابهارانا » تتكون من مائة ألف بيت ، وقصيدة « الرامايانا » ·· أربعة وعشرون ألف بيت ، ومئات القصائد الرائعة الأخرى ·· بتعقب أحداث التاريخ وحكمة الانسان ·· منذ وفد الآريون الى الهند فى قديم الزمان ، ثم نسجت الهندوسية لنفسها من تلك الأساطير كتابا مقدسا أسموه « البورانا » أى ·· القديم ·

ونطورت الهندوسية بعد ذلك ، لتدافع عن نفسها أمام الديانات الجديدة ··· الوافدة الى بلاد الهند مع الغزاة المتتابعين ، الى أن أصبحت الهندوسية فكرة فلسفية سامية ، هى الايمان بوجود روح كونى أعلى ،